الفصل السادس

- الإيجابيات والسلبيات.
- خاتمة.

obeikandl.com

obeikandl.com

الإيجابيات والسلبيات:

بعد بضع سنوات من إطلاق أول فضائية عربية بدأت موجه إطلاق الفضائيات العربية تلفت الانتباه إلى أن هذا الوافد الجديد أزال كل الحواجز وعبر الحدود وأن هذه الفضائيات حركت مياه الإعلام الراكدة فى الكثير من البلاد العربية. وبدأ علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة والمثقفون ورجال الدين ـ فى رصد تأثير هذه الفضائيات فى المجتمعات العربية.

ومع إطلاق قناة «الجزيرة» وما أحدثته من زلزال فى الساحة السياسية وإطلاق العديد من القنوات التى سارت على نهج الجزيرة بقدر ما سمحت لها ظروفها، ومع تزايد عدد القنوات الترفيهية بكل أشكالها «غنائية ودرامية ودردشة» وإطلاق عدد هائل من الفضائيات الدينية الإسلامية والمسيحية، بكل تنويعاتها المذهبية، مع إطلاق هذه القنوات بكثافة تعاظم تأثير هذه الفضائيات على المجتمعات العربية فى مختلف المجالات السياسية والدينية والاجتماعية.

ولا يتسع المجال فى هذا الكتاب لمتابعة هذه التأثيرات بدقة وموضوعية فمثل هذه المتابعة تتطلب دراسات ميدانية واستطلاعات رأى علمية يمكن أن تكشف أبعاد هذه التأثيرات، ومثل هذا الجهد لا يتوافر لى وأظنه لم يتوافر حتى الآن ليقدم للدارسين قاعدة بيانات موثَّقة يمكن الإعتماد عليها فى دراسة عمق واتجاه هذا التأثير.

وما أسجله من تأثيرات إيجابية وسلبية فى هذه الصفحات هو اجتهاد شخصى يعتمد على متابعة عدد كبير من هذه القنوات وعلى بعض الكتابات التى عنيت برصد جوانب من تأثير هذه القنوات.

الإيجابيات:

لعل التأثير السياسى هو التأثير الأكثر وضوحًا، لأنه التأثير الذى حرك الجماهير وأنظمة الحكم معًا مع اختلافٍ فى اتجاه الحركة لكل منهما.

وقد تناولت بالتفصيل تأثير الفضائيات على أنظمة الحكم فى الفصل الخاص بعلاقة هذه الأنظمة بالفضائيات كما أشرت فى أكثر من مكان فى هذا الكتاب إلى تأثير الفضائيات على الجماهير العربية.

وقد رأيت أن أخصص صفحات لأجمع شتات هذه التأثيرات فى نقاط محددة.

أولا: التأثير السياسى المباشر:

بدأ التأثير السياسى المباشر فى الظهور بوضوح بعد فترة وجيزة من انطلاق قناة «الجزيرة»، فقد تمكَّنت «الجزيرة» من جذب ملايين المشاهدين باقتحام جميع الموضوعات المتعلقة بممارسات أنظمة الحكم السياسية على جميع الجبهات العالمية والعربية والداخلية وكسرت كل «الخطوط الحمراء» التى كانت تمنع وسائل الإعلام من مجرد الاقتراب منها. وعندما بدأت البرامج الجماهيرية فى إطلاق موجات النقد الحاد لسياسات أنظمة الحكم وممارستها بلغ الفزع الحكومى مداه. وظهر جليًا أن التأثير السياسى للفضائيات قد بلغ حدًا لا تستطيع أنظمة الحكم تجاهله لأنه يصيب استقرارها فى الحكم بالتصدع. ونستطيع أن نرصد هذا التأثير فى عدة نقاط.

١ - اضطرت أنظمة الحكم العربية إلى منح الإعلام الرسمى قدرًا من الحرية وسمحت له بالخوض فى موضوعات ظلت لسنوات من المحرمات التى لا يُسمح بمجرد الاقتراب منها. فسُمح مثلا بتوجيه النقد لبعض الوزراء وبعض القيادات التنفيذية كالمحافظين بل قامت أنظمة الحكم بتبنى بعض مطالب الجماهير. وخففت من القيود المفروضة على ظهور رموز المعارضة فى أجهزة الإعلام الرسمية خاصة مَن ترى أنهم يمثلون المعارضة المعتدلة من منظور أنظمة الحكم.

ومثل هذه الحرية تعتبر دون شك إضافة مهمة فى اتجاه كسر القيود الرقابية الضيقة على الإعلام الرسمى.

٢ - انعكس هذا المناخ إيجابيًّا على الإنتاج الفنى عامة والإنتاج الدرامى خاصة فظهرت أعمال سينمائية ومسلسلات تتعرض بالنقد اللاذع للكثير من الممارسات الحكومية. وتُعمِّق مشاعر الغضب الجماهيرى ضد كل ألوان الفساد وخاصة الفساد المالى الذى يحتمى بسلطة الحكم. ومثل هذه الأعمال الفنية تتراكم تأثيراتها وتجعل الجماهير مهيأة نفسيًّا لتلبية أية دعوة لرفض هذا الفساد وللتحرك لمواجهته.

٣ - اتاحت الفضائيات لقوى المعارضة فرصة ممتازة لينطلق صوتها المحاصر وليصل هذا الصوت إلى الملايين. ورغم ما تعانيه قوى المعارضة من ضعف نتيجة لظروف موضوعية كثيرة، فإن إتاحة الفرصة لرموزها بمخاطبة الملايين، لطرح الأفكار والآراء ونقد سياسات أنظمة الحكم ـ منحت قوى المعارضة بعض الحصانة التى يوفرها نسبيًّا اطلاع ملايين الجماهير على مواقفها، هذه المواقف التى كان الإعلام الرسمى كفيلا بتشويهها وتحريض الجماهير على رفضها مع خفوت صوت المعارضة ومحاصرته. وجاءت الفضائيات لتكسر هذا الحصار وتسمح لصوت المعارضة بالوصول إلى الملايين وكسب تعاطفها إلى حد ما.

٤ - منحت هذه الفضائيات قضية «التضامن العربى» قوة دفع هائلة. فعرض الصور الحية للإنتفاضات الفلسطينية، وصور التعذيب البشعة للأشقاء بالعراق فى سجون الاحتلال الأمريكى ومتابعة كل ألوان العدوان التى تمارسها إسرائيل وأمريكا فى أكثر من بلد عربى. هذا العرض الحى حرك الضمير العربى فى كل بقعة من أرجاء الوطن العربى واندلعت المظاهرات والاحتجاجات تضامنًا مع كل شعب عربى تعرض للعدوان الإسرائيلى أو الأمريكى أو لأى عدوان أجنبى.

٥ - امتدت مشاعر «التضامن» هذه لتشمل جماهير المسلمين فى جميع البلاد الإسلامية، والجاليات الإسلامية فى أوربا وأمريكا وأستراليا. وأصبح رد فعل الجماهير العربية والإسلامية تجاه كل ألوان البطش والعدوان الأجنبى

أمراً يحسب حسابه بعد أن ضمت موجات التضامن مئات الملايين فى أنحاء العالم والتى أصبح تحركها بعد لحظات من وقوع أى عدوان تحركًا له أثره.

٦ - ترسخت مشاعر التضامن العربى والإسلامى بما قدمته وتقدمه هذه الفضائيات من تعريف بالبلاد الإسلامية خاصة الجمهوريات الإسلامية التى استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفييتى، والتعريف بالأقليات المسلمة التى تعيش فى أوربا وآسيا وغيرها. وقدمت البرامج الخاصة صورًا حية من هذه المواقع أسهمت بقوة فى تهيئة نفوس المشاهدين للتعاطف مع إخوانهم فى الدين، وبالتالى أصبحت هذه الجماهير مهيأة نفسيًّا للتحرك تضامنًا مع هؤلاء الأشقاء الذين لم تكن الجماهير تعرف عنهم الكثير بل ربما لم تكن تعرف عنهم شيئًا.

٧ - انكسر حاجز الخوف الذى شل حركة الجماهير زمنًا طويلاً نتيجة لقسوة وبطش أنظمة الحكم وإبقاء أخبار هذا البطش محاطة بسياج قوى من السرية. وجاءت الفضائيات لتكشف الكثير من أخبار هذا البطش ولتعطى الفرصة لمن تعرَّض للبطش بعرض تفاصيل ما تعرض من قهر وظلم. وتحركت ضمائر الجماهير، وأصبحت قضايا البطش بالمواطنين وقهرهم والاعتداء على حقوقهم «قضايا رأى عام»، ولقى من تعرض للبطش التعاطف من ملايين المشاهدين وتصاعد غضب الجماهير من هذه الأحداث وعبّرت الملايين عن هذا الغضب والسخط بالمظاهرات والاحتجاجات والاعتصامات وبالاتصالات الهاتفية المباشرة بالفضائيات للإعراب عن سخطهم وإدانتهم القوية لأنظمة الحكم وإعلانهم التضامن مع كل من تعرّض للبطش والقهر.

واضطرت الحكومات فى بعض الحالات الصارخة لمحاكمة بعض رجال السلطة الذين مارسوا هذا البطش، وصدرت أحكام بالسجن على بعض الضباط المتورطين فى عمليات تعذيب المواطنين.

وكانت المحصلة الطبيعية جرأة المواطنين وتصدى عدد منهم لدفع هذا البطش مطمئنين إلى أن الفضائيات ستتابع صراعهم مع هذا القهر وأن جماهير المشاهدين ستتحرك بعد مشاهدة هذا الصراع لمؤازرة كل مَنْ تعرض للبطش والقهر الحكومى.

٨ - اكتسبت الجماهير قدرات تنظيمية فى مجال الاحتجاجات والإضرابات بعد أن انفجرت حركة الاحتجاجات الجماهيرية لتبلغ فى مصر عدة مئات من الإضرابات والاعتصامات فى العام لم تشهد مصر طوال عشرات السنين إضرابات أو احتجاجات جماهيرية، إلا عدداً لا يتجاوز رقم الخمس أو العشر طوال عشرات السنين.

وفى ظروف سمح فيها نظام الحكم بمثل هذه الاحتجاجات وبالبث المباشر لوقائعها وهتفاتها الناقدة لنظام الحكم، كانت الجماهير فى كل مرة تكتسب مزيدا من المهارة فى تنظيم هذه الإحتجاجات والإضرابات[١].

٩ - تنامى شعور أعداد كبيرة من الجماهير بأن لديها الفرصة للمشاركة برأى يُسمع فى الكثير من الفضائيات من خلال الاتصالات الهاتفية التى يدلون فيها برأيهم فى بث مباشر عندما تطلب القنوات من الراغبين فى المشاركة والاتصال هاتفيا أو عبر رسائل الهاتف المحمول أو عبر البريد الإلكترونى ويتم بث هذه الأراء على الهواء مباشرة.

وقد ساهمت هذه المشاركات فى اتساع دائرة المواطنين الراغبين فى المشاركة بالرأى فى الكثير من القضايا. وشعر المواطنون الذين لم تتح لهم الفرصة لعشرات السنين للإدلاء بأرائهم بحرية فى قضايا تمس حياتهم، ـ أن الفرصة أُتيحت لهم للمشاركة فسارعوا بإستغلال هذه الفرصة.

وقد أسهمت هذه الحالة فى تهيئة المناخ الملائم لإقناع الجماهير بضرورة المشاركة الإيجابية ـ ولو بالرأى ـ فى مناقشة الكثير من القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

(١) من نماذج هذه التحركات الجماهيرية، إضراب عمال المحلة ـ احتجاجات مواطنى دمياط لمنع إقامة مصنع يلوث البيئة، واحتجاجات المواطنين فى قرى للمطالبة بمياه شرب نقية أو لمنع إقامة محطات تقوية للهواتف المحمولة بطريقة تضر بصحة المواطنين ونماذج أخرى لاحتجاجات جماهيرية كثيرة.

وفى مثل هذا المناخ تدخل قطاعات كبيرة من المواطنين معترك الحراك السياسى وتشارك بشكل أو بآخر فى تنشيط التحرك السياسى على الصعيد الجماهيرى.

وفى هذا المجال تنافست الفضائيات فى تحريض المواطنين على المشاركة بالمداخلات الهاتفية التى تستغرق فترة زمنية معقولة عند مناقشة بعض الموضوعات التى تحظى باهتمام جماهيرى. وقدمت قناة «الجزيرة مباشر» مساحات زمنية كبيرة لتلقى هذه الاتصالات من الجماهير بتخصيص ساعات من البث المباشر تطرح فيها القناة موضوعًا معينًا وتترك الفرصة كاملة للمواطنين للإدلاء بآرائهم فى هذا الموضوع.

١٠- نتيجة لهذه المشاركة الجماهيرية اكتسبت الجماهير القدرة على الحوار وعلى طرح رؤاها فى مختلف الموضوعات بدرجة كبيرة من الموضوعية. والواقع أن البدايات شهدت مشاركات غير منضبطة فى طريقة التعبير عن الرأى وحدثت تجاوزات كثيرة من مواطنين عبروا عن غضبهم بعبارات خارجة فى بعض الأحيان. غير أن التجربة بدأت تستقر وبدأت حالة التوجس والتوتر التى صاحبت البدايات فى التراجع وأصبحت الاتصالات والمداخلات للمواطنين أكثر نضجاً وموضوعية.

وهذا المناخ يُسهم أيضاً فى تنمية الوعى السياسى وفى خلق الأجواء المواتية لنشاط سياسى جماهيرى إذا توافرت الظروف الموضوعية المناسبة بتخفيف أنظمة الحكم من قبضتها الحديدية على النشاط السياسى الجماهيرى.

١١- أسهمت الفضائيات فى جذب مئات الآلاف من الشباب ليمارسوا نشاط «التدوين» والمشاركة بالحوار عبر شبكة الإنترنت ثم المشاركة فى الحراك السياسى. فقد ظل نشاط الشباب محصوراً فى دائرة الشباب المهتم بإنشاء «مدونات» أو المشاركة فى مجموعات «الفيس بوك» إلى أن نقلت الفضائيات جانباً من نشاط هؤلاء الشباب فلفتت الانتباه إلى أهمية هذا النشاط، ونشرت الفضائيات هذا النشاط لينتقل من دائرة المئات أو الآلاف المحدودة

إلى دائرة عشرات أو حتى مئات الآلاف من الشباب. وتفاعلت الملايين من المواطنين مع هؤلاء الشباب. وزاد حماس هؤلاء الشباب فاتسع نشاطهم ليضم مئات الآلاف من الشباب الجدد. بل وصل حماس هؤلاء الشباب أن أسهموا فى نجاح الكثير من حركات الاحتجاج وتبنى الدعوة للإضرابات والإعتصامات فى مدوناتهم، بل وأسهم عدد كبير منهم بالمشاركة بأنفسهم فى مثل هذه الاعتصامات والإضرابات[1].

١٢- اضطر نظام الحكم فى مصر إلى التخلى عن بسط حمايته على بعض رموز الفساد بعد أن تابعت الفضائيات عمليات الفساد الكبرى التى مارستها مافيا نهب المليارات سواء فى صورة قروض من البنوك أو فى صورة الاستيلاء على أراضى مملوكة للدولة أو فى صورة امتيازات شاذة تسمح بنهب المليارات. وكشفت الفضائيات الكثير من عمليات الفساد الكبرى خاصة تلك التى ترتبط فيها رموز القيادات السياسية برموز مافيا الفساد. وكانت النتيجة الطبيعية أن نظام الحكم اضطر إلى التخلى عن بعض رجالة المتورطين فى قضايا فساد كبرى واضطرت مافيا الفساد أن تخفف بعض الشىء من مغالاتها، وأن تحاول البحث عن أساليب أقل استفزازًا لمشاعر الشعب. ولا يعنى هذا أن مافيا الفساد قد توقفت عن نشاطها أو أن الروابط بين رموز الفساد ورموز السلطة قد تقطعت ولكن الخوف من مطاردة الفضائيات جعل مافيا الفساد أكثر حذراً وفى مثل هذا المناخ تقل نسبيًا أعمال الفساد الكبرى.

ثانياً: تأثيرات اجتماعية وثقافية

١ - تقاربت اللهجات العامية العربية نتيجة لحرص الفضائيات عند تقديم البرامج على استخدام العبارات العامية الأقرب إلى أصول الفصحى والتى يمكن أن يفهمها المواطن العربى فى جميع البلاد العربية ، وذلك حتى تتسنى للجماهير العربية فى كل مكان متابعة هذه البرامج بسهولة.

(١) من المجموعات الشهيرة مجموعة شباب ٦ إبريل من مدونى الإنترنت التى شاركت فى الكثير من حركات الاحتجاج بالدعوة لها عبر مدوناتهم وأيضاً بالمشاركة بأشخاصهم فى عدد من هذه الحركات الاحتجاجية.

ومن يتابع الفضائيات المختلفة سوف يلاحظ أن عبارات عامية كثيرة فى معظم البلاد العربية تطورت بالاقتراب من أصول الفصحى وبالتلاقح مع لهجات عامية أخرى لتكون النتيجة لهجات عامية عربية يستطيع أن يفهمها الجمهور العربى إلى درجة ما فى كل مكان بالوطن العربى .

٢ - تفاعلت الفنون العربية خاصة فنون الغناء والموسيقى والمسرح والسينما أخذا وعطاءً لتصبح هذه الفنون أقرب إلى أذواق الجماهير العربية العريضة. وتعّرفت هذه الجماهير فى مختلف البلاد العربية على فنون البلاد العربية الأخرى لتكتشف جماليات كثيرة تطرب لها. وتستمتع بمشاهدتها. ومع هذا التفاعل تتبلور ببطء ألوان من الفنون التى تكتسب صفات يستسغيها الذوق العربى عامة. وبهذا التفاعل تزداد الحركة الفنية العربية ثراء وتنوعًا فى إطار مذاق عربى عام يعبر عن وحدة لا تمنع التنوع بل تشجعه.

وما يقال عن الفنون ينطبق على الإبداعات الثقافة. فقد أتاحت الفضائيات للجماهير الاطلاع على إبداعات ثقافية متنوعة والتعرّف على مبدعين فى مختلف مجالات الثقافة والفن فى مختلف البلاد العربية . وبث هذه الإبداعات على أوسع نطاق أتاح للجماهير العريضة التعرف على الإبداعات الثقافية والفنية العربية المنوّعة ولم تعد هذه الفرصة قاصرة على المتخصصين فى مجالات الثقافة والفن وحدهم، بل تجاوزت النخب الثقافية إلى الدائرة الأوسع من الجماهير .

ومثل هذا الإنتشار الجماهيرى الواسع يفتح المجال أمام تطور بالغ الحيوية للإبداعات الثقافية والفنية العربية فى جميع البلاد العربية.

٣ - ازدادت مشاعر «الأخوّة العربية» على الصعيد الإنسانى بعيدًا عن الشعارات السياسية التى كثيرًا ما تُعرّض هذه المشاعر لهزات عنيفة. فقد أتيح للمشاهد العربى وهو يتابع الأعمال الدرامية المعبّرة عن المجتمعات

العربية المختلفة، ـ الفرصة لكى يعايش أحداث الحياة اليومية لهذه الشعوب الشقيقة ولكى يتعرف على نمط الحياة اليومية لمختلف الشعوب العربية فى صور نابضة بالحياة وهى تجسد أنماط الحياة والتقاليد وتقدم ألوانا من الصراعات والمفاهيم الاجتماعية. كل هذا أسهم بقوة فى شعور الجماهير بروابط القربى وتشابه القيم الاجتماعية، ومثل هذه المعايشة من خلال التفاعل مع الأحداث الدرامية ترسّخت مشاعر قوية ومن ثَمّ تتوثق روابط الأخوة والقربى .

٤ - ازدهرت صناعة الأعمال الدرامية من أفلام سينمائية ومسلسلات تليفزيونية نتيجة لحاجة المئات من الفضائيات لهذه المواد الدرامية التى تمثل مادة جذبٍ مهمة لمشاهديها. ومع اتساع السوق وكثرة الطلب ازدهرت صناعة الدراما العربية عامة والمصرية والسورية خاصة. ويكفى أن نعلم أن صناعة الدراما السورية قد تضاعف إنتاجها عشرات المرات خلال سنوات قليلة كما ظهرت أعمال درامية خليجية نافست هى الأخرى فى سوق كان لسنوات محتكرًا للدراما المصرية.

ولم يقتصر هذا الازدهار على الجانب المادى أى على الأرباح التى يحققها منتجو هذه الأعمال ، بل أسهم هذا الازدهار فى ظهور عدد كبير من مؤلفى الدراما ومن الفنانين والمخرجين. وكُسرت الحواجز الفنية بين البلاد العربية بدرجة كبيرة، وأصبح نجوم فنون الدراما، وفنون الغناء نجومًا جماهيرية على مستوى الوطن العربى كله. وأصبح من المألوف أن نشاهد أعمالاً درامية مصرية نجومها سوريون وخليجيون، وأعمالا سورية وخليجية نجومها من مصر أو من العراق.

وهذا الازدهار الفنى مع تنوع النجوم والهويات الوطنية للنجوم فى العديد من هذه الأعمال، فتح الطريق أمام ظهور أجيال من النجوم الشباب على صعيد الوطن العربى كله. فلم تعد دائرة الفنانين قاصرة على جماهير أوطانهم بل أصبحت جماهيرهم هى الملايين من الجماهير العربية فى جميع الأقطار العربية.

والنتيجة الطبيعية لمثل هذا المناخ مزيد من الازدهار فى مجال الفنون عامة وفنون الدراما خاصة. وتبلورت ظاهرة «النجم العربى» العابر للحدود القُطْرية.

ثالثاً : تأثيرات اقتصادية :

أسهمت الفضائيات فى تنشيط السياحة العربية. كما أسهمت فى تنشيط التبادل التجارى العربى العربى. ولا شك أن ما سبق وذكرته عن التقارب فى المجال الاجتماعى والفنى والثقافى أسهم بقوة فى تنشيط أسواق التجارة والسياحة بين البلاد العربية. ومثل هذا التقارب النابع من رغبة جماهيرية طبيعية يعزز الجهود الرسمية التى تبذلها فى هذا المجال مؤسسات الجامعة العربية المعنية بهذا النشاط.

رابعاً : تأثيرات خاصة :

عمّقت مشاعر الانتماء للوطن الأم لدى المهاجرين العرب فى مختلف بلاد العالم. ورغم أن هذه مشاعر طبيعية إلا أن إتاحة الفرصة لهؤلاء المهاجرين للمتابعة اليومية لأخبار الوطن الأم، ومعايشة الأحداث فى مواقعها ولحظة حدوثها وبصورة حيّة، جعلت مشاعر الحنين للوطن فى حالة يقظة دائمة. كما أن هذه المعايشة للحياة اليومية فى الوطن الأم ساعدت الآباء والأمهات على أن يُنَمّوا فى الأجيال الجديدة التى ولدت بالمهجر مشاعر المواطنة والارتباط بالوطن الأم.

وهذه الروابط لها ثمراتها على الصعيد السياسى حيث شاهدنا تفاعل هذه الجاليات مع الأحداث التى تقع بالوطن الأم . وترجمة هذا التفاعل إلى تحركات سياسية لها تأثير عميق على أنظمة الحكم فى البلاد العربية التى تحرص على تجميل صورتها لدى الرأى العام الأجنبى.

وعلى الصعيد الاجتماعى والثقافى أسهمت هذه المتابعة فى حفاظ المهاجرين على هوياتهم الثقافية وتنشئة الأجيال الجديدة فى إطار الحفاظ على هذه الهوية.

وعلى الصعيد الاقتصادى أثمر تعظيم هذه المشاعر وتنميتها مزيدًا من الرغبة لدى المهاجرين فى المساهمة فى كل نشاط استثمارى أو سياحى أو علمى يعود بالنفع على الوطن الأم.

السلبيات :

تأثيرات سياسية :

١ - إثارة النعرات الإقليمية وتشجيع روح التعصب القطرى عندما تنشب الخلافات بين أنظمة الحكم العربية. ويركز الخطاب الإعلامى فى مثل هذه الظروف على استدعاء مشاعر التعصب الوطنى ووضعه فى مواجهة نفس التعصب الذى تمارسه فضائيات الخصم. ومن أبرز الأمثلة لجوء الإعلام المصرى إلى التباهى بالعنصرية الفرعونية إلى حد التطرف فى بعض الحالات ووضعها فى موجهة الانتماء العربى.

وعلى نقيض هذا النهج يواجه إعلام النظم المختلفة مع النظام المصرى هذا الاتجاه بإثارة نزعات عنصرية عربية تشكك فى عروبة مصر أو تستدعى عنصرية وطنية فى مواجهة التشجيع على تمزيق روابط الأخوة العربية[١].

٢ - تشتيت المشاهد العربى وزيادة التشويش على هذا المُشَاهد عند مناقشة قضايا سياسية أو فكرية والنموذج الصارخ لهذا التأثير هو برنامج «الإتجاه المعاكس» الذى تقدمه قناة «الجزيرة». والمؤسف أن هذا النموذج حظى بكثافة مشاهدة عالية وهو ما دفع قنوات أخرى إلى تقديم برامج مماثلة جريا وراء جذب الجماهير. والمفروض أن تقدم مثل هذه البرامج القضايا السياسية والقطرية محل الاختلاف باستضافة من يملكون القدرة على الحوار الموضوعى لبيان مختلف زوايا الموضوع، حتى يتمكن المشاهد فى نهاية البرنامج من رؤية الموضوع من مختلف زواياه ويتعرف على وجهات

(١) لعل أبرز نماذج هذا الصراع الذى استدعى كل المفاهيم والقيم العنصرية وألبسها لبوس الوطنية فى مواجهة الانتماء القومى العربى ما حدث فى شهر نوفمبر ٢٠٠٩ بعد مباراة كرة القدم بين فريقى مصر والجزائر التى جرت فى الخرطوم فى إطار المنافسة على التأهل لمباراات كأس العالم.

النظر المختلفة حول الموضوع محل الحوار وذلك لمساعدة المشاهد على استخلاص الرأى الذى يراه الأقرب للصواب.

غير أن هذا البرنامج وبرامج أخرى مشابهة يستضيف أكثر رموز الاختلاف تعصباً، ويطرح الموضوع باعتباره «مبارزة» بين الضيفين ويستحثهما على تصعيد الخلاف بعبارات فجة تستثير أسوأ كوامن التعصب، ليصل الأمر فى كثير من الأحيان إلى تبادل السباب والشجار بينما مقدم البرنامج سعيد بهذا التراشق بالاتهامات.

والنتيجة الحتمية أن ينتهى البرنامج وقد ازداد المشاهد حيرة وتشتتا وازداد الغموض والتشويش الذى يحيط بالموضوع الذى طرح للنقاش.

٣ - محاولة بعض مقدمى البرامج خاصة فى «الجزيرة» فرض اتجاهاتهم الفكرية على الضيوف، وتوجيه الحوار فى برامجهم الوجهة التى يرونها متسقة مع أفكارهم وتوجهاتهم السياسية والفكرية. وهذا الاتجاه يظهر بوضوح تام فى برنامج «شاهد على العصر» و «بلا حدود» و «أكثر من رأى».

٤ - تقديم التبريرات الإسرائيلية لعملياتها العدوانية الوحشية باستضافة متحدثين إسرائيليين يتحدثون باستفاضة لتبرير العدوان ولا يتم هذا فى إطار مواجهة مع طرف عربى قادر على أن يفنّد هذه التبريرات. وبحجة إتاحة الفرصة لعرض وجهات النظر المختلفه أصبح المتحدثون الإسرائيليون ضيوفًا دائمين ووجوهًا مألوفة للمشاهد العربى . ومن الطبيعى أن يسهم هذا الوجود المستمر فى كسر حدة مشاعر العداء العربى وأن يَقْبل بعض المشاهدين بالتبريرات الإسرائيلية.

وإذا كانت «الجزيرة» هى صاحبة السبق فى هذا المجال، فقد نافسها بعد ذلك قنوات «العربية» السعودية وقناة «النيل الإخبارية» المصرية.

٥ - ترتفع نغمة تبرير العدوان الأمريكى على العراق والدفاع عن الهيمنة

الأمريكية، بحجة أن هذا العدوان خلّص الشعب العراقى من حكم الفرد الذى سلب شعب العراق حرياته وأذاقه ألوان البطش.

وتشارك بعض الفضائيات العربية فى هذا الاتجاه الذى تقوده بطبيعة الحال قناة الحرة الأمريكية .

٦ - تكريس حكم الفرد المطلق بمنطق ضمان «الاستقرار» والدفاع عن سياسات هذه الأنظمة خاصة فيما يتعلق بممارسة كل ألوان القهر واستضافة الشخصيات الموالية لهذه الأنظمة لتتغنى بالإنجازات الرائعة لهؤلاء الحكام وتضفى عليهم من صفات الحكمة والحنكة السياسية والرؤية الثاقبة مما يجعلهم أقرب إلى العصمة.

وتكرّس القنوات الرسمية وشبه الرسمية جهدها للدعاية لشخص الحاكم وأسرته .

ولا يشذ عن هذا الاتجاه سوى بعض القنوات الخاصة بدرجة ما وقنوات الجزيرة والمنار والحرة والقنوات الأجنبية الناطقة بالعربية. هذا الاستثناء ليس لوجه الحق ومصلحة الشعوب لكنه توجّه محكوم بأهداف مالكى هذه القنوات.

وتكمن المفارقة هنا فى أن بعض هذه القنوات التى تبرر الغزو الأمريكى للعراق بأنه خلّص الشعب العراقى من حاكم طاغية هى نفسها التى تدافع بقوة عن حكام أشد بطشًا وطغيانًا من صدام حسين.

تأثيرات اجتماعية وفكرية :

١ - لعل أخطر تأثير هو التحريض على الصراع المذهبى «سنة وشيعة» وتتبنى جميع القنوات الدينية بلا استثناء تقريبا هذا النهج الخطير.

ويظهرا الاتجاه بجلاء فى عدد كبير من القنوات العراقية التى يصل غلو بعضها إلى تكفير أصحاب المذاهب المخالفة. وبعض القنوات التى تطلقها قوى شيعية يعبّر بعضها عن أكثر الاتجاهات الشيعية تعصبًا. وتفعل نفس الشىء القنوات التى تطلقها قوى سنية.

ويزداد التأثير خطورة باستخدام هذه الخلافات المذهبية فى الصراعات السياسية، خاصة الصراع الذى تقوده أمريكا ضد إيران. فالدول العربية الحليفة لأمريكا وفى مقدمتها مصر والسعودية تدفع فضائياتها لمهاجمة المذهب الشيعى بزعم أن إيران تشجع على نشر هذا المذهب فى مصر والسعودية وكلاهما معقل المذاهب السنى. وللأسف فقد نجح هذا التحريض وسط الجماهير العريضة التى تحركها عواطفها الدينية الجيّاشة ولا تملك المعرفة المناسبة بأمور الدين فتستسلم لهذا التحريض. ومن المفارقات أيضًا فى هذا المجال أن الأزهر الشريف تُدَرّس فيه المذاهب الشيعية خاصة المذهب الجعفرى. والأزهر هو معقل المذاهب السنية مما يعنى أن التحريض على المذاهب الشيعية يتم لأغراض سياسية.

٢ - تتبنى القنوات الإسلامية الاتجاهات المحافظة ويختار الكثير منها الاتجاهات الأكثر تشددا، وتركز على الاهتمام بالتدين الشكلى وتهاجم بشراسة كل من يجرؤ على الاجتهاد أو الدعوة للاهتمام بالمقاصد العليا للإسلام. والنتيجة ما نشاهده من تعطيل مصالح المواطنين فى جميع المصالح الحكومية فى مصر بحجة أداء الصلوات جماعة فى مواقيتها. وأيضا ما نلاحظه من الاهتمام الكبير بالمظاهر الدينية كإطلاق اللحى وارتداء النقاب والحجاب بينما تنحدر السلوكيات لكثير من هؤلاء إلى أحط المستويات التى يرفضها الإسلام رفضًا تامًا كالكذب والنفاق والرشوة والغش إلى آخر هذه السلوكيات التى يرفضها الإسلام رفضًا حاسمًا.

٣ - يدعو عدد كبير من القنوات الدينية الإسلامية إلى التخلف والدجل ، فتقدم البرامج التى تفسر الأحلام تقدم هذا التفسير بإدعاء أن هذا التفسير يستند إلى ما جاء بالقرآن الكريم والسنة الشريفة.

وتذهب بعض القنوات إلى حد استضافة من تطلق عليه لقب العالم ليكتب الأحجبة للمشاهدين. وتتبنى بعض القنوات فكرة العلاج بالقرآن

الكريم وتقدم أشخاصًا تزعم أنهم يملكون هذه القدرة وأن الله سبحانه وتعالى اختصهم بهذه الموهبة.

هذه الخرافات والجهالات تلقى آذانًا مصغية من العامة. ويسهم نشر هذه الاتجاهات المختلّفة فى عرقلة أى تنمية بشرية ويُبقى قطاعات كبيرة أسرى هذه الحلقة الجهنمية من الجهل والتخلّف .

٤ - أفرزت هذه الاتجاهات شخصيات لقبت نفسها بالدعاة. وأتقن بعضهم استخدام عبارات جذابة تدغدغ العواطف الدينية لدى العامة. وفى نفس الوقت أغلقت هذه القنوات الباب أمام علماء الإسلام المستنيرين والمجتهدين إلا فى حالات نادرة. وكثر دعاة التعصب والإنغلاق العقلى وتفننوا فى استغلال العواطف الدينية لدى الجماهير العريضة ليكرسوا القيم المتخلفة ويحرضوا الجماهير على رفض كل اجتهاد يخالف هذه القِيَم. وقد ساعد عمق العواطف الدينية ونقص الثقافة على تمكين دعاة التخلف والتعصب من حشد الملايين من هذه الجماهير فى اتجاه التدين الشكلى والتعصب المقيت، وأصبحت هذه الجماهير «قوة ردع وقهر» بالغة الخطورة يوجهها دعاة التعصب لمهاجمة من يجرؤ على الاجتهاد برؤية مستنيرة. وكانت النتيجة خفوت أصوات المستنيرين والعلماء المجتهدين الحقيقيين أمام «القهر الجماهيرى» الذى يغذيه دعاة التخلف والتعصب.

٥ - حولت هذه القنوات «الدين» إلى سلعة تدرّ أرباحًا خيالية لأصحاب هذه القنوات بأساليب شتى تستغل العواطف الدينية الجياشة لدى الجماهير. وأكثر أساليب الاستغلال يتم بتحريض الجماهير على الاتصالات الهاتفية لتحميل ما تسميه هذه القنوات بالبرامج الإسلامية على الهواتف المحمولة. وتتعدد هذه البرامج والمواد بين أدعية أو طلب فتاوى أو عرض مشكلة على شيخ معيّن يرد على المتصلين على هاتف يسمونه «الهاتف الإسلامى».

وقد ازدهرت هذه التجارة إلى الحد الذى أصبحت معه هذه التجارة

بالإسلام من أكثر الأعمال التى تجذب الفضائيات لتحقيق أرباح باهظة تتمثل فى النسبة التى تحصل عليها هذه القنوات من قيمة الاتصالات الهاتفية. كما تدغدغ عواطف الجماهير الدينية بتقديم مسابقات تدعو الجماهير لتشارك فيها عبر الهاتف وجوائزها استضافة لأداء مناسك الحج أو العمرة.

ويزيد من بشاعة التجارة بالإسلام هذه أن أكثر المتأثرين بها هم البسطاء من الجماهير التى تعانى الفقر والحاجة والتى تقتطع من دخولها الشحيحة ما تدفعه ثمنًا لهذه الاتصالات الهاتفية سواء لتطمئن من خلال هاتف الفتوى على «الحلال والحرام» ، أو طمعاً فى أن تحقق أشواقها للحج أو العمرة بالربح فى هذه المسابقات.

٦ - كثرت الفضائيات المسيحية، وكرس بعضها برامجه لمهاجمة الإسلام كدين ولعل أكثر هذه القنوات تورطًا فى مثل هذا الهجوم «قناة الحياة» حيث يقوم أحد القساوسة بالتهجم على القرآن والسنة وكثيرًا ما يستخدم عبارات فجة فى السخرية من المقدسات الإسلامية[١].

كما تشترك أكثر من قناة فى تقديم قصص لفتيات وشباب تحولوا من الإسلام إلى المسيحية وتقدم هؤلاء ليؤكدوا أنهم اكتشفو أخطاء كثيرة فى الإسلام وأنهم عرفوا أخيراً طريق الهدايا الصحيحة عندما اعتنقوا المسيحية ويدعوا هؤلاء الشباب والفتيات للانضمام إليهم، والغالبية الساحقة ممن تقدمهم هذه القنوات مصريون. ومن الطبيعى أن يشعل مثل هذا الاتجاه الفتنة الطائفية فى مصر بين المسلمين والمسحيين، خاصة أن بعض خطباء المساجد وبعض من يسمونهم الدعاة فى الفضائيات الدينية

(١) القس زكريا يكرس برامجه فى هذه القناة على الهجوم بعبارات جارحة وهابطة على القرآن الكريم وعلى شخص الرسول محمد ﷺ . وقد بلغ من انحطاط أسلوب الهجوم لهذا القس أن أعلنت الكنيسة المصرية أنه لا يمثلها ولا يمثل أقباط مصر. كما يستهجن كثير من المسيحيين المصريين أسلوب هذه القناة وتوجهاتها.

الإسلامية يواجهون القنوات المسيحية المتطرفة بخطاب أكثر تطرفًا. وهذا الاتجاه لإثارة الفتنة الطائفية فى مصر من أخطر الاتجاهات التى تهدد بكوارث حقيقية خاصة وأن الأجواء العامة مهيأة للتجاوب مع دعوات الفتنة الطائفية سواء بالتحريض المباشر أو بنشر أجواء التعصب لدى كل طائفة.

تأثيرات اقتصادية:

١ - التحريض بقوة لنشر ثقافة الاستهلاك بشكل خاص باستغلال ضعف الآباء والأمهات أمام رغبات أطفالهم وذلك بالبث الكثيف لإعلانات السلع التى تحرك رغبات الأطفال والصبية فى سن المراهقة. وفى مجتمعات تزيد فيها نسبة محدودى الدخل فإن مثل هذه الاتجاهات تشكل ضغطًا قويًا على هذه الأسر وتضعها بين اختيارين كلاهما مر، إما أن تستسلم لإلحاح أبنائها وتقتطع من دخلها المحدود الذى لا يكاد يكفى الضروريات، أو أن ترفض تلبية الطلبات الملحة لأبنائها، فتصيبهم بالكثير من العقد النفسية عندما يشعرون أنهم محرمون مما يتمتع به أقرانهم.

٢ - التركيز على الإعلان عن سلع تمثل قمة الاستفزاز للغالبية الساحقة من المواطنين، سواء بعرض الاعلانات عن المنتجعات التى تتنافس فى عرض القصور والڤيلات التى تقدر قيمتها بالملايين، بينما الملايين فى بلد كمصر لا يجدون حجرة تأوى إليها أسرة كاملة. ويضاف إلى هذه القصور والڤيلات الأثاث الأنيق والفاخر والمجوهرات وكل السلع التى تمثل قمة الترف والتى لا يقدر على اقتنائها إلا القلة ممن حققوا ثراءً فاحشًا. ويضيف إلى الاستفزاز أن هذه الجماهير المحرومة ـ تعلم مما يُنشر ويذاع أن الكثير من هذا الثراء الفاحش لم يتحقق بجهد أصحابه ، بل تحقق بنهب أموال الشعب وممارسة ألوان شتى من الفساد الذى يتورط فيه بعض كبار المسئولين.

وتراكم إحساس الجماهير فى هذا الاتجاه يخلق تربة خصبة لنمو التطرف ويُنشئ مناخًا ملائمًا لانفجارات شعبية لا ينقصها إلا شرارة لتنطلق فى اتجاه يحركه غضب مجنون يدمر كل ما يصادفه.

خـاتمـة

أعتقد أن بعض القراء تثور فى أذهانهم تساؤلات طبيعية بعد الانتهاء من قراءة صفحات الكتاب. ومن هذه التساؤلات على سبيل المثال .

١ - هل تخلو الساحة من مؤسسة إعلامية عربية هدفها تقديم «إعلام حر ومستقل» وتعبّر بصدق ـ قدر الإمكان ـ عن مصالح الجماهير وتكون المنبر الحر لهذه الجماهير ومَنْ يعبّرون عن مصالحها؟

٢ - ما هو مستقبل الصراع بين أنظمة الحكم العربية والأجنبية والفضائيات التى تتعرض لسياسات وممارسات هذه الأنظمة بالنقد؟

٣ - هل سُدّت كل الأبواب أمام قيام مؤسسات إعلامية مستقلة استقلالاً حقيقيًّا وملتزمة فى أدائها بالقواعد والمعايير المهنية.

وإذا كان لى أن أجتهد برأى فإننى أجيب على هذه التساؤلات بما أتصور أنه رصد أمين للواقع .

لا يوجد إعلام عربى ومستقل

استطيع أن أُؤكد بضمير مستريح أن الساحة لا توجد بها مؤسسة إعلامية تتمتع باستقلال حقيقى. فجميع القنوات الرسمية والخاصة خاضعة تمامًا لمالكيها سواء كان هؤلاء الملاك هم أنظمة الحكم أو رجال الأعمال الذين لا يملكون حرية حقيقية تمكنهم من السماح لقنواتهم بالخوض فيما يغضب أنظمة الحكم . وتحرص كل القنوات وبلا استثناء على تحقيق مصالح وأهداف مالكيها.

ولا يعنى هذا أن ننكر مدى ما حققته الفضائيات العربية من كسر الكثير من القيود الثقيلة، فالفضائيات العربية كان لها الفضل فى كسر أسوار العتم الإعلامى الذى فرضته أنظمة الحكم على شعوبها لسنوات طويلة كما ذكرت فى أكثر من موقع فى هذا الكتاب.

ولا أرى تناقضًا بين ما ذكرته من أن الساحة العربية ليس بها قناة واحدة يمكن أن نعتبرها قناة مستقلة وتتمتع بحرية حقيقية، وبين ما سجلته من إيجابيات كثيرة للفضائيات.

فالقنوات التى سمحت بتدفق حر للأخبار وبكسر الكثير من الخطوط الحمراء التى مُنعت القنوات الأرضية والفضائية لسنوات طويلة من مجرد الاقتراب منها، هذه القنوات لم تفعل ذلك لوجه الله والأوطان أو حرصًا على أن تقدم إعلامًا حرًّا أو مستقلاً، بل فعلت ذلك لتحقيق أهداف خاصة بمالكى هذه القنوات، عندما رغبوا فى جذب الجماهير العربية العريضة التوّاقة لمتابعة الأخبار والمعلومات المحجوبة عنها فى القنوات الرسمية. واستطاعت هذه القنوات أن تجذب ملايين المشاهدين وأن تكسب ثقتهم ولكن الهدف لم يكن تقديم خدمة إعلامية حرة مستقلة لهذه الجماهير، بل كان الهدف امتلاك أداة إعلامية مؤثرة تمنح مالكيها قوة معنوية وورقة رابحة فى علاقاتها مع باقى الدول العربية. أو فى علاقات مالكيها بالحكومات فى بلادهم.

معنا هذا أن مصلحة الجماهير الحقيقية، والإعلام الحر المستقل الذى يلتزم فقط بمصالح الجماهير العريضة لم يكن «هدفًا» ، بل كان «وسيلة» لتحقيق نفوذ الجهة التى أطلقت هذه القنوات. ولا يمكن فى مثل هذه الحالة أن نعتبر هذه الحرية قيمة مستقرة وثابتة لكنها «حالة مؤقتة» مرهونة بمدى ما تحققه هذه القنوات لمالكيها من أهداف سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

ولعل أبرز النماذج لهذه القنوات قناة «الجزيرة» وإلى حد ما قنوات «العربية» و «المنار» اللبنانية و «العالم» الإيرانية وعدد من القنوات الخاصة. فرغم ما حققته هذه القنوات من كسرٍ لأطواق العزلة الإعلامية المفروضة على الشعوب العربية، فإنها لا تفعل ذلك كمؤسسة إعلامية محترفة، لكنها تنفّذ سياسات مالكيها الذين سمحوا لها بسقف الحرية المرتفع. ومن يملك منح الحرية يملك منعها إذا رأى فى ذلك جلبًا لمصلحة أو دفعًا لخسارة.

مزيد من القيود القانونية على حرية الإعلام :

تناولت تفصيلاً علاقة أنظمة الحكم بالفضائيات فى فصل كامل وخلصت إلى أن أنظمة الحكم العربية ومؤسسات الحكم فى أمريكا وبعض الدول الأوربية شعرت بانزعاج شديد مما أحدثته هذه الفضائيات من حركة جماهيرية كسرت حاجز الخوف الذى شل حركتها لسنوات طويلة، وشن هجمات شرسة على سياسات الهيمنة الأمريكية والتخاذل الأوربى. وكيف تحركت هذه الأنظمة لإصدار وثيقة عربية لفرض القيود الثقيلة على هذه الفضائيات.

ولا أشك لحظة فى أن الفشل فى إصدار هذه الوثيقة لن يثنى مصر والسعودية عن ابتكار وسائل قانونية وإدارية تنهى هوامش الحرية المتاحة حتى الآن لهذه الفضائيات. وإذا كانت مصر هى الدولة التى بادرت بإعداد قانون يتضمن مواد أكثر صرامة فى تقييد حرية التعبير حتى من الوثيقة العربية، فلا يعنى هذا أن الأنظمة العربية الأخرى لن تفرض قيوداً أكثر عنفًا. فالحقيقة أنه باستثناء لبنان وقطر بدرجة ما ولظروف خاصة ، فإن أنظمة الحكم العربية كلها لديها ترسانات من القوانين والإجراءات الإدارية التى تفرض على النشاط الإعلامى قيوداً بالغة العنف .

مفوضية للإعلام العربى :

فى شهر يناير «كانون ثانى» عام ٢٠١٠ عقد وزراء الإعلام العرب إجتماعاً فى دورة غير عادية وكان على جدول أعمال هذا الاجتماع موضوعان:

الأول : بحث قرار الكونجرس الأمريكى بفرض عقوبات على الدول المالكة لأقمار صناعية إذا سمحت ببث قنوات فضائية معادية لأمريكا ومحرِّضة على العنف والإرهاب حسب تقدير الإدارة الأمريكية.

الثانى : إنشاء «مفوضية للإعلام العربى» فى إطار الجامعة العربية، تكون بمثابة الجهاز التنفيذى لتطبيق المبادئ والمواثيق التى يجب أن تلتزم بها جميع

الفضائيات التلفزيونية الحكومية والخاصة على السواء وذلك على غرار المفوضيات الموجودة بالاتحاد الأوربى.

وإنتهى الاجتماع إلى رفض القرار الأمريكى وتكليف المسئولين باستخدام القنوات الدبلوماسية للاتصال بالإدارة الأمريكية وإقناعها بعدم التصديق على هذا القرار لأنه سوف يثير اعترضات دول كثيرة بإعتبارة تدخلاً سافرًا فى الشئون الداخلية للدول مالكة الأقمار الصناعية.

وفيما يتعلق بإنشاء المفوضية العربية للإعلام أبدى عدد من الوزراء تحفظهم على المشروع المقدم وتقرر تأجيل المشروع لمزيد من البحث وحتى يعرض فى الدورات التالية.

ملاحظات على مشروع المفوضية :

من الملاحظات الجوهرية على إنشاء الفوضية العربية للإعلام أن المفوضيات الأوربية التى أعتُبرت نموذجًا يُحْتَذى، هذه المفوضيات أنشأتها مؤسسات الاتحاد الأوربى وهى مؤسسات منتخبة وليست مؤسسات حكومية.

وإذا اريد بالفعل إنشاء آلية تنفيذية لطبيق المعايير المهنية ومواثيق الشرف فالطريق الصحيح هو تشكيل هذه المفوضية من مؤسسات غير حكومية، تُمَثَّل فيها النقابات المهنية المعنية بقضايا حرية التعبير وفى مقدمتها نقابة الصحفيين ونقابة الإذاعيين المهنية «عندما يتم إنشائها»، وشخصيات عامة وقضائية تختارها مؤسسات غير حكومية تم تشكيلها بالإنتخاب.

على أن يتولى وضع مواثيق الشرف والقواعد المهنية وأخلاقيات ممارسة المهنة المؤسسات النقابية الإعلامية «نقابة الصحفيين ونقابة الإذاعيين».

السيطرة على النقابات المهنية للصحافة :

حرية الإعلام بكل وسائله المطبوع والمسموع والمرئى والإلكترونى لا تكفلها مواد الدساتير والقوانين فحسب، ولكن تعتمد أيضاً على جناح آخر يكفل لهذه الحرية مقاومة كل عدوان عليها، هذا الجناح هو «النقابات المهنية» للصحافة

التى يتمتع بعضويتها المهنيون فى جميع وسائل الإعلام بمنطق التعريف العلمى للصحافة الذى يُعرف «الصحافة» بأنها (الصحافة المطبوعة) المجلات والصحف (والصحافة المسموعة) الإذاعة (والصحافة المرئية) التليفزيون. وأضيف إليها حديثًا (الصحافة الإلكترونية) مواقع التدوين على شبكة الإنترنت.

وفى مصر لا توجد نقابة مهنية للإذاعيين وعندما حاول الإذاعيون إنشاء نقابة مهنية خاصة بهم رفضت الحكومة المصرية رفضًا حاسمًا السماح للإذاعيين بإنشاء نقابة مهنية.

وفى النصف الأول من عام ٢٠٠٩ تجمهر عدد من الإذاعيين من الإذاعة والتليفزيون أمام مبنى الإذاعة والتليفزيون احتجاجًا على تردى أوضاعهم الوظيفية وعلى ما تتعرض له «المهنة» من مخاطر. وكان على رأس مطالب المحتجين إنشاء نقابة مهنية تحمى المهنة وتحمى حقوقهم. وأبدى وزير الإعلام تجاوبًا مع مطلب المحتجين، وشرع بالفعل فى اتخاذ خطوات عملية لإعداد مشروع قانون لإنشاء نقابة مهنية للإذاعيين «إذاعة وتليفزيون» .

وقامت لجنة من الإذاعيين بإعداد مشروع القانون. وقُدّم لوزير الإعلام ليتولى تقديمه إلى مجلس الشعب لإصداره فى دورة الانعقاد الثانية للمجلس فى النصف الثانى من عام ٢٠٠٩ وبدايات عام ٢٠١٠.

وأبدى وزير الإعلام ملاحظات على مشروع القانون الذى أعدته لجنة من الإذاعيين «إذاعة وتليفزيون» وأبدى رغبته فى إدخال تعديلات جوهرية، رأى عدد كبير من أعضاء اللجنة أن هذه التعديلات تحوّل النقابة المهنية إلى مسخ لا ينتمى إلى النقابات المهنية المعنية بحماية المهنة وأعضائها.

وأعتقد أن الحكومة سوف تتقدم بمشروع قانون مُعَدّل لإنشاء نقابة للإذاعيين يمكّن الحكومة من السيطرة الكاملة عليها.

حرصت على الحديث المفصل عن نقابة للإذاعيين إذاعة وتليفزيون تتمتع باستقلال حقيقى لأن هذا الموقف الحكومى يمثل الموقف الثابت لنظام الحكم

فى مصر. والذى يرى فى النقابات المهنية عامة والنقابات المهنية المعنية بحرية الرأى خاصة خطراً يتحتم منعه، أو على الأقل السماح بإنشائها فى ظل ظروف تسمح للحكومة من السيطرة الكاملة عليها.

هذا هو الحال فى مصر. أما فى باقى البلاد العربية فالأمر محسوم إما بعدم السماح أصلاً بإقامة نقابة مهنية وإما بإنشاء نقابة شكلية تسيطر عليها تمامًا أنظمة الحكم.

والاستثناء الوحيد عربيًا هو نقابة الصحفيين ونقابة المحررين فى لبنان. وفى غياب نقابات مهنية تفقد القنوات الإذاعية والتليفزيونية الأرضية والفضائية على السواء أحد أهم الأجنحة التى تجعلها قادرة على تقديم إعلام يتمتع باستقلال وحرية حقيقية.

ماذا عن المستقبل:

اعتقد أن التطورات المذهلة والمتسارعة فى تكنولوچيا وسائل الاتصال سوف تمنح القوى الراغبة فى الإفلات من القبضة الحديدية لأنظمة الحكم وتمنح الجماهير التوّاقة متابعة إعلام يتمتع بقدر من الحرية. سوف تمنحها فرصا ممتازة للمناورة، وسوف تتمكن هذه القوى والجماهير من ابتكار وسائل كثيرة تواصل بها الفضائيات نشاطها بقدر كبير من الحرية سواء بالبث المباشر أو عبر شبكة الإنترنت أو من خلال الأجيال الجديدة من الهواتف المحمولة.

ومهما أحكمت أنظمة الحكم من المواد القانونية التى تحاول منع التدفق الحر للأخبار والمعلومات فإن الجماهير التى تمتعت بقدر معقول من حرية الإعلام فى السنوات الأخيرة سوف تجد الوسائل المناسبة التى تمكنها من العثور على الكلمة الحرة والخبر المحجوب عنها، وسوف تتمكن بسهولة باستخدام مستحدثات تكنولوچيا الإتصالات من متابعة أى بث حر للأخبار والمعلومات. كما أن القوى الراغبة فى ممارسة النشاط ستجد متسعا لها فى بلاد أوروبية كثيرة تبث منها قنواتها متحررة من كل القيود.

تجارب لفشل الحصار الإعلامى :

المتابع لقدرة الجماهير على إختراق أعنف وسائل الحصار الإعلامى سوف يكتشف القدرة الهائلة لهذه الجماهير لكسر هذا الحصار وأكتفى بثلاثة أمثلة :

النموذج الأول : قبل عصر الفضاء لجأ عدد من المعارضين السعوديين إلى إرسال منشورات مناهضة لنظام الحكم السعودى بواسطة أجهزة الفاكس التى كانت قد إنتشرت بكثرة فى المكاتب والمنازل. وكان إرسال هذه المنشورات يتم بسهولة من بلاد أوربية. وبواسطة رسائل الفاكس هذه وصل صوت المعارضين إلى مئات الآلاف من المواطنين السعوديين .

النموذج الثانى : واجه المعارضون الإيرانيون الحصار الإعلامى الصارم الذى فرضة شاة إيران بتهريب أشرطة كاسيت إلى داخل إيران مسجل عليها نداءات للثورة بصوت الإمام الخومينى وقادة المعاضة الإيرانية فى الخارج وتمكنت المعارضة الإيرانية من كسر أعنف حصار إعلامى بما عُرف فى أدبيات الإيرانية بـ «ثورة الكاسيت».

النموذج الثالث : حاول نظام الحكم فى إيران «عام ٢٠٠٩» فرض حصار إعلامى خانق لمنع صوت معارضى الرئيس أحمدى نجاد من عبور الحدود الإيرانية، فتم منع وسائل الإعلام من متابعة وتصوير مظاهر الاحتجاج. ورغم ذلك تمكن المعارضون من أختراق هذا الحصار وبث صور حية للمظاهرات بواسطة هواتف محمولة تبث مباشرة عبر أقمار صناعية.

هذه النماذج تؤكد أن محاولات الحكومات المختلفة فرض حصار إعلامى على الشعوب لم تعد مجدية.

ولو وضعنا فى الإعتبار أن التقدم التكنولوچى يقدم كل يوم جديدًا فى مجال الاتصالات وبقدرات فائقة على إختراق كل حصار فمعنى هذا أن عصر فرض الحصار الإعلامى على الشعوب قد ولى إلى غير رجعة.

والجدير بالذكر أن الأقمار الصناعية يتزايد عددها بسرعة وأن عام ٢٠١٠ على سبيل المثال سوف يشهد إطلاق أكثر من عشرين قمرًا صناعيًا جديدًا،

عشرة منها تغطى المنطقة العربية، ويبلغ عدد القنوات المتاحة بهذه الأقمار للبث الفضائى أضعاف عدد القنوات المتاحة حتى الآن وبكفائة أكبر،

وهذا العدد الهائل من الأقمار تملكه شركات تجارية هدفها تسويق قنوات هذه الأقمار لمن يرغب فى إستئجارها دون مراعاة لأية قرارات تحاول أن تقيد من حركاتها فى هذا المجال من الإستثمار.

الطريق إلى إعلام مستقل:

رغم ما تحمله التطورات المذهلة لتكنولوچيا وسائل الاتصال من آمال لكسر الكثير من قيود أنظمة الحكم على حرية الكلمة، فإن حلم الجماهير بأن تحظى بفرصة حقيقية تجعلها تتابع قنوات تتمتع بإستقلال وحرية حقيقية، هذا الحلم أراه بعيد المنال إذا استمر الحال على ما هو عليه وبقيت المؤسسات الإعلامية العربية كلها مملوكة لأنظمة الحكم أو لرجال الأعمال.

فكما أسلفنا سيظل مالكو هذه القنوات يتحركون وفق خط يراعى مصالحهم، وهى مصالح لا تتطابق قطعاً مع مصالح الجماهير العريضة، بل ربما تعارضت تمامًا مع هذه المصالح، وتراعى فى نفس الوقت عدم إغضاب أنظمة الحكم.

هل يعنى هذا أن نيأس أو أن نستسلم لهذه الأوضاع ونرضى بأن تفرض علينا الظروف وتَعَارُض المصالح بين أنظمة الحكم وبعض مالكى هذه القنوات أوضاعًا تفتح أبوابًا واسعة لحرية الكلمة لبعض الوقت ثم تغلقها وقتما تشاء!؟.

الحلم العربى:

هذه الأسئلة حاصرت كل المهمومين بقضايا حرية الإعلام العربى واستقلاله. وكانت الأحداث الكثيرة التى كشفت عن مطاردة أنظمة الحكم لكل كلمة حرة، ونجاح هذه الأنظمة فى محاصرة كل كلمة حرة مستقلة ورضوخ القنوات الخاصة لضغوط الأنظمة، كانت هذه الأحداث ماثلة فى الأذهان. وكان أبرزها المطاردة التى لاحقت الإذاعى «حمدى قنديل» والتى تمكنت ضغوط

أنظمة الحكم العربية وبعض القوى الأجنبية من إبعادة عن شاشات القنوات الرسمية والخاصة لاكثر من مرة كان آخرها عدم قدرة قناة ليبية على احتمال الضغوط أكثر من شهر. والنماذج لمطاردة أنظمة الحكم لكل صاحب كلمة حرة أكثر من أن تحصى.

رؤية لإنشاء فضائية حرة ومستقلة :

وفى لقاء صحفى مع «حمدى قنديل» نشرته صحيفة «العربى» المصرية بشّرنا بأنه يفكر جديا فى إنشاء مؤسسة إعلامية مستقلة يملكها عدد من المثقفين العرب وتسهم الجماهير العربية كلها فى إنشائها وفى ملكيتها لتكون بحق صوت الجماهير العربية الحر المستقل. وأتصور أن المجال هنا يسمح بل يحتم أن أتعرض بتفصيل مناسب لهذه الفكرة.

أتصور أن يتنادى الإعلاميون المعنيون بالاستقلال الحقيقى والحرية المسئولة للإعلام ، لاجتماع يؤسسون فيه مجموعة عمل تقوم بدراسة شاملة للمشروع وأن تُعنى الدراسة بشكل خاص بما يتعلق بضمان استمرار مثل هذه المؤسسة فى أداء مهامها استنادا إلى دراسات جدوى اقتصادية واقعية ، وإلى دراسات قانونية لا تُغفل قدرة أنظمة الحكم على ممارسة الضغوط الرهيبة لإجهاض مثل هذه المؤسسة، وإلى دراسات للواقع العملى يحدد مكان إنشاء هذه القناة واستديوهات البث والأقمار المتاحة والتى لا تقع تحت النفوذ العربى أو الأمريكى.

● يطرح المؤسسون الفكرة على عدد من الشخصيات العامة المعنية بالحريات وعلى الجماهير العربية فى جميع البلاد العربية ، وتطرح أسهم هذه المؤسسة للاكتتاب العام. ولا يسمح لشخص مهما كانت مكانته وحماسه بأن يمتلك أسهمًا تمكنه قانونا من الانفراد باتخاذ القرارات الخاصة بنشاط المؤسسة وتوجهاتها.

● يدعو المؤسسون لاجتماع موسّع يضم الشخصيات العامة من أكثر من بلد عربى والمشهود لهم بالدفاع عن حرية الكلمة، وفى هذا الاجتماع يُنتخب

«مجلس الأمناء» يتولى مسئولية هذه المؤسسة. وتتم أيضاً مناقشة التوجهات الرئيسية للمؤسسة وميثاق الشرف الذى تلتزم به، والمعايير التى ستمثل المرجعية التى يتم الاحتكام إليها .

● أعتقد أن من البديهى أن يتم الحصول على ترخيص مثل هذه المؤسسة من عاصمة أوربية تسمح قوانينها وظروفها بحماية مثل هذه المؤسسة ومقاومة أى ضغوط قد تمارسها أنظمة الحكم العربية أو الإدارة الأمريكية أو الحكومة الإسرائيلية واللوبى اليهودى لإغلاق أبوابها. وأعتقد أيضًا أن تكون الاستديوهات الرئيسية للقناة التى ستقوم المؤسسة ببثها فى هذه العاصمة الأوربية .

● أتصور أن تحقيق هذا الحلم العربى ليس بالأمر المستحيل، وأن الجماهير العربية التوّاقة لمشاهدة قناة تتمتع بالاستقلال وبحرية حقيقية، وتلتزم بالمعايير المهنية المحترمة، هذه الجماهير كفيلة بأن تضمن تحقيق هذا الحلم بتوفير التمويل الذى يضمن إنشاء واستمرار مثل هذه القناة.

هذا هو الحلم العربى الذى يمكن أن يسهم بقوة فى تغيير الواقع العربى البائس الذى فرضته على المواطنين فى جميع البلاد العربية أنظمة حكمٍ نجحت لسنوات طويلة فى أن تفرض كل ألوان القهر على شعوبها فى ظل غياب شبه كامل لإعلام مستقل وحر يحشد الجماهير لتكسر قيود القهر.

وبنفس القدر من الأهمية أتصور أن تتصدى مثل هذه القناة لموجات التعصب الجاهل والتخلف الخطير الذى خضع لتوجهات تشجّع على تبنى قيمة التواكل والاستسلام الذليل للقهر والظلم وتريد للمرأة التى أنصفها الإسلام أن تعود إلى قِيَم المجتمع الجاهلى باسم الإسلام.

قضية التنوير قضية محورية لمثل هذه القناة فبهذا التنوير تفتح أبواب النهضة الحقيقية التى تتحقق بمشاركة فاعلة لجماهير عريضة تستطيع برؤية مستنيرة أن تفرض تغييرًا جذريًّا يضمن لها حياة حرة كريمة فى ظل نظم حكم تختارها هذه الجماهير بوعى وتملك الإرادة التى تمكنّها من محاسبة حكامها.